حسن الظن بالله وآثاره

ألقى فضيلة الشيخ أسامة بن عبد الله خياط – حفظه الله – خطبة الجمعة بعنوان: "حسن الظن بالله وآثاره"، والتي تحدَّث فيها عن حُسن الظن بالله تعالى، وبعض آثاره وثمراته، مُنبِّهًا على خطر إساءة الظن بالله؛ لما في ذلك من الوعيد الشديد والعقاب الأليم يوم القيامة، مُستدلاً على ذلك بما جاء في كتاب الله تعالى وسنة رسوله – صلى الله عليه وسلم –.

الخطبة الأولى

الحمد لله الهادي لمن استهداه، الكافي من تولاَّه، أحمده – سبحانه – حمدًا نبتغي به وجهَه ورِضاه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له لا ربَّ غيرُه ولا إله سِواه، وأشهد أن سيدنا ونبيَّنا محمدًا عبدُ الله ورسوله أفضلُ نبيٍّ هداه ربُّه واصطفاهُ واجتباه، اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه صلاةً وسلامًا تزكُو بهما النفوس وتسمُو وتطيبُ بهما الحياة.

أما بعد:

فاتقوا الله – عباد الله –، وتوبوا إليه واستغفِروه ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١١، ١٢].

عباد الله:

ديدَنُ أُولي الألباب ونَهجُ المتقين وشأنُ عباد الرحمن: إحسانُ الظنِّ بربهم الأعلى لا حَيْدَة عنه، ولا مَيْل عن سبيله، ولا توقُّف فيه ولا نُكوص عنه، ولا عجبَ أن يكون لهم هذا النهج، وأن يُعرَف لهم هذا المسلَك وهذا التعامُل مع ربهم؛ فقد جاءهم منه – سبحانه – ما يبعَثُ على الاستمساك به والعضّ عليه بالنواجِذ، وذلك في الحديث الذي

أخرجه الشيخان في "صحيحيهما" عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: «قال الله: أنا عند ظنِّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكَرني ..» الحديث.

وفي الحديث الذي أخرجه مسلمٌ في "صحيحه" عن جابر بن عبد الله – رضي الله عنه – أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: «لا يُموتنَّ أحدُكم إلا وهو يُحسِنُ الظنَّ بالله تعالى».

وهذا مُباينٌ أعظم المُبايَنة، ومُخالفٌ أشد المُخالَفة لطريق الظانِّين بالله ظنَّ السَّوْء، أولئك الذين نعى اللهُ عليهم هذا وشدَّد عليهم فيه النكير، فقال – سبحانه – فيما قصَّ علينا من أنباء غزوة أُحُد وما كان فيها من أحداثٍ وعِبَر: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

إنه حديثٌ عن فِئة أهل شكٍّ وريبٍ في الله – عزَّ وجل –، لم يغشَها النُّعاس الذي بعثَه الله يوم أُحُد بسبب ما كانت عليه – أي: هذه الفِئة – من قلقٍ وجزَعٍ وخوف، تظنُّ بالله غيرَ الظنِّ الحق الذي يجبُ أن يُظنَّ به – سبحانه –، كما قال – عزَّ اسمُه –: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ [الفتح: ١٢].

وهكذا اعتقدَت هذه الفِئَة أن مُشركي قريش لما ظهَروا أن هذا الظهر هو الفَيصلُ، وأن اللهَ لا ينصُر رسولَه، وأن أمره سيضمَحِلّ، وأنه يُسلِمُه إلى القتل.

وفُسِّر – كما قال الإمام ابن القيم – رحمه الله –: بأن ما أصابَهم لم يكن بقضائه وقدره ولا حكمة له فيه، ففُسِّر بإنكار الحكمة، وإنكار القدر، وإنكار أن يُتِمَّ أمر رسوله، ويُظهِره على الدين كله.

وهذا هو ظنُّ السوء الذي ظنَّه المُنافِقون والمُشركون به – سبحانه وتعالى – في سورة الفتح؛ حيث يقول: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].

وإنما كان هذا ظنَّ السوء وظنَّ الجاهلية الذي نُسِب إلى أهل الجهل وظنَّ غير الحق؛ لأنه ظنٌّ لا يليقُ بأسمائه الحُسنى وصفاته العُليا وذاته المُبرَّأة من كل سوء، بخلاف ما يليقُ بحكمته وحده وبتفرُّده بالربوبية والألوهية، وما يليقُ بوعده الصادق الذي لا يُخلِفُه، وبكلمته التي سبَقَت لرُسُله أن ينصُرَهم ولا يخذُلَهم، ولجُنده بأنهم هم الغالبون.

فمن ظنَّ بالله أنه لا ينصُر رسولَه ولا يُتِمُّ أمره ولا يُؤيِّده، ولا يُؤيِّد جُندَه، ولا يُعلِيهم ويُظفِرُهم بأعدائه ويُظهِرهم عليهم، وأنه لا ينصُر دينَه وكتابَه، وأنه يُديلُ الشركَ على التوحيد، والباطلَ على الحق إدالةً مُستقرَّةً يضمحِلُّ معها التوحيدُ والحقُّ اضمحلالاً لا يقومُ بعده أبدًا؛ فقد ظنَّ بالله ظنَّ السوء، ونسبَه إلى خلاف ما يليقُ بكماله وجلاله وصفاته ونُعوته، فإن عزَّته وحكمةَ إلهيته تأبَى ذلك، وتأبَى أن يُذِلَّ حِزبَه وجُنده، وأن تكون النُّصرةُ المُستقرَّة والظَّفَر الدائم لأعدائه المُشركين به العادِلين به.

فمن ظنَّ به ذلك فما عرَفَه ولا عرفَ أسماءه ولا عرَفَ صفات كماله، وكذلك من أنكر أن يكون ذلك بقضائه وقدره فما عرَفَه ولا عرَفَ ربوبيته ومُلكَه وعظمَتَه، وكذلك من أنكر أن يكون ما قدَّر اللهُ من ذلك وغيره لحكمةٍ بالغة وغايةٍ محمودة يستحقُّ الحمدَ عليها، وأن ذلك إنما صدَرَ عن مشيئةٍ مُجرَّدةٍ عن حكمةٍ وغايةٍ مطلوبةٍ هي أحبُّ إليه من فَوتِها، وأن تلك الأسباب المكروهة المُفضِيَة إليها لا يخرج تقديرُها عن الحكمة؛ لإفضائها إلى ما يُحبُّ – وإن كانت مكروهةً له –، فما قدَّرها سُدًى، ولا أنشأها عبثًا، ولا خلقها باطلاً، ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

وأكثرُ الناس يظنُّون بالله غيرَ الحق ظنَّ السوء فيما يختصُّ بهم، وفيما يفعلُه – سبحانه – بغيرهم، ولا يسلمُ من ذلك إلا من عرفَ اللهَ وعرفَ أسماءَه وصفاتِه، وعرفَ مُوجِبَ حمده، وعلِمَ حكمته؛ فمن قنطَ من رحمته، وأيِسَ من روحه فقد ظنَّ به السوء.

ومن جوَّز عليه أن يُعذِّب أولياءَه مع إحسانهم وإخلاصهم، ويُسوِّي بينهم وبين أعدائه فقد ظنَّ به السوء.

ومن ظنَّ به أنه يترك خلقَه سُدًى مُعطَّلين من الأمر والنهي، ولا يُرسِلُ إليهم رُسلَه، ولا يُنزِّلُ عليهم كتبَه؛ بل يترُكهم هملاً كالأنعام؛ فقد ظنَّ به ظنَّ السوء.

ومن ظنَّ أنه لن يجمَع عبيدَه بعد موتهم للثواب والعِقاب في دارٍ يُجازَى فيها المُحسِن بإحسانه والمُسيءُ بإساءته، وليُبيِّن لخلقه حقيقة ما اختلفوا فيه، وليُظهِر للعالمين كلهم صدقَه وصدقَ رُسله، وأن أعداءه كانوا هم الكاذبين؛ فقد ظنَّ به ظنَّ السوء.

ومن ظنَّ أنه يُضيعُ عليه عملَه الصالحَ الذي عمِلَه خالصًا لوجهه الكريم على امتثال أمره، ويُبطِله عليه بلا سببٍ من العبد، وأنه يُعاقِبُه بما لا صنيعَ فيه ولا اختيار ولا قُدرةَ ولا إرادةَ في حصوله؛ بل يُعاقِبُه على فعله هو – سبحانه – به، أو ظنَّ أنه يجوز عليه أن يُؤيِّدَ أعداءَه الكاذبين عليه بالمُعجِزات التي يُؤيِّدُ بها أنبياءَه ورُسُله، وأن يُجرِيَها على أيديهم يُضلُّون بها عبادَه، وأنه يحسُنُ منه كلُّ شيءٍ حتى أن يُعذِّبَ من أفنى عمرَه في طاعته فيُخلِّدَه في الجحيم أسفل سافلين، ويُنعِّمَ من استنفذَ عمرَه في عداوته وعداوة رُسله ودينه، فيرفعه إلى أعلى عليِّين، وأن كلا الأمرين في الحُسن سواءٌ عنده؛ فقد ظنَّ به ظنَّ السوء.

ومن ظنَّ به أنه أخبرَ عن نفسه وصفاته وأفعاله بما ظاهرُه باطلٌ وتشبيهٌ وتمثيل، وتركَ الحقَّ ولم يُخبِر به، وإنما رمزَ إليه رموزًا بعيدة، وأشارَ إليه إشاراتٍ بالألغاز، وأراد من خلقه أن يُتعِبوا أذهانَهم وقُواهَم وأفكارَهم في تحريف كلامه عن مواضِعه، وتأويله على غير تأويله، من ظنَّ به – سبحانه – ذلك فقد ظنَّ به ظنَّ السوء.

ومن ظنَّ به أنه إذا صدَقَه في الرغبةِ والرهبةِ، وتضرَّع إليه وسألَه، واستعانَ به، وتوكَّلَ عليه، أنه يُخيِّبُه ولا يُعطيه ما سألَه؛ فقد ظنَّ به ظنَّ السوء، وظنَّ به خلافَ ما هو أهلُه.

فأكثرُ الخلق – بل كلُّهم – كما قال الإمام ابن القيم – رحمه الله –: "أكثرُ الخلق – بل كلُّهم – إلا من شاء الله منهم – يظنُّون بالله غيرَ الحق ظنَّ السوء؛ فإن غالبَ بني آدم يعتقِدُ أنه مبخوسُ الحق، ناقِصُ الحظ، وأنه يستحقُّ فوق ما أعطاه الله، ولسانُ حالِه يقول: ظلمَني ربي، ومنعني حقي، ونفسُه تشهَدُ عليه بذلك، وهو بلسانه يُنكِرُه، ولا يتجاسَرُ على التصريح به، ومن فتَّشَ نفسَه وتغلغلَ في معرفة دفائنِها وطواياها رأى ذلك فيها كامِنًا كُمُونَ النار في الزناد، فمُستقِلٌّ ومُستكثِر".

ففتِّش نفسَك: هل أنت سالمٌ من ذلك؟!

فإن تنجُ منها تنجُو من ذي عظيمةٍ وإلا فإني لا إِخالُكَ ناجيًا

فليعتنِ اللبيبُ الناصِحُ نفسَه بهذا الموضع، وليتُب إلى الله ويستغفِره كل وقتٍ من ظنِّه بربه ظنَّ السوء، وليظنَّ السوء بنفسه التي هي مادةُ كل سوء، ومنبَع كل شر؛ فهي أولَى بظنِّ السوء من أحكَم الحاكمين وأعدل العادلين وأرحم الراحمين الغني الحميد، الذي له الغِنى التام، والحمد التام، والحكمة التامة في ذاته وصفاته وأفعاله وأسمائه، ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٤].

نفعني الله وإياكم بهدي كتابه، وبسنة نبيِّه – صلى الله عليه وسلم –، أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم الجليل لي ولكم ولجميع المسلمين من كل ذنبٍ، إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي خلق فسوَّى، والذي قدَّر فهدى، أحمده – سبحانه – حمدَ شاكرٍ ذاكرٍ مُخبتٍ لربه الأعلى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثَّرى، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله وحبيبُه المُجتبى ونبيُّه المُصطفى، اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه أئمة الهُدى ونُجوم الدُّجَى.

أما بعد، فيا عباد الله:

قال الله تعالى – حكايةً عن قول إبراهيم – عليه الصلاة والسلام – لقومه: ﴿أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ٨٦، ٨٧]؛ أي: ما ظنُّكم أن يفعل بكم إذا لقِيتموه وقد عبدتم غيرَه؟!

ومن تأمَّل هذا الموضع – كما قال أهل العلم – علِمَ أن حُسن الظن بالله هو نفس حُسن العمل؛ فإن العبدَ إنما يحمِلُه على حُسن العمل ظنُّه بربِّه أنه يُجازيه على أعماله، ويُثيبُه عليها، ويتقبَّلُها منه، فالذي حَمَله على حُسن العمل حُسن الظن؛ فكلما حسُن ظنُّه حسُن عملُه، وإلا فحُسن الظنِّ مع اتباعِ الهوى عجزٌ.

وبالجُملة؛ فحُسن الظن إنما يكون مع انعقاد أسباب النجاة، وأما مع انعقاد أسباب الهلاك فلا يتأتَّى إحسانُ الظن.

فاتقوا الله – عباد الله –، وأحسِنوا الظنَّ بربكم، وأحسِنوا له العمل؛ تفوزوا بالرضا والرضوان من الرب الرحيم الرحمن، ونزول رفيع الجِنان.

وصلُّوا وسلِّموا على سيد ولد عدنان؛ فقد أمركم بذلك الملكُ الديَّان، فقال – سبحانه –: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك محمد، وارضَ اللهم عن خلفائه الأربعة: أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعليٍّ، وعن سائر الآلِ والصحابةِ والتابعين، ومن تبِعَهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، وعنَّا معهم بعفوك وكرمك وإحسانك يا أكرم الأكرمين.

اللهم أعِزَّ الإسلام والمسلمين، اللهم أعِزَّ الإسلام والمسلمين، اللهم أعِزَّ الإسلام والمسلمين، واحمِ حوزةَ الدين، ودمِّر أعداء الدين، وسائرَ الطُّغاةِ والمُفسدين، وألِّف بين قلوب المسلمين، ووحِّد صفوفَهم، وأصلِح قادتَهم، واجمع كلمتَهم على الحق يا رب العالمين.

اللهم انصر دينكَ وكتابكَ وسنةَ نبيك محمد – صلى الله عليه وسلم – وعبادكَ المؤمنين المُجاهِدين الصادقين.

اللهم آمِنَّا في أوطاننا، وأصلِح أئمَّتنا وولاةَ أمورنا، وأيِّد بالحق إمامَنا ووليَّ أمرنا خادمَ الحرمين الشريفين، وهيِّئ له البِطانةَ الصالحةَ، ووفِّقه لما تُحبُّ وترضى يا سميعَ الدعاء، اللهم اجزِه أفضلَ الجزاء و أحسنَه وأكملَه على مواقفه الإسلامية الطيبة وغيرته المشكورة، وتصدِّيه لمن تجاوز حُدودَه فتعدَّى وأساءَ وظلَم.

اللهم وفِّقه ونائبَيْه وإخوانه إلى ما فيه خيرُ الإسلام والمسلمين يا رب العالمين، وإلى ما فيه صلاحُ العباد والبلاد، يا من إليه المرجِعُ يوم التناد.

اللهم أحسِن عاقبتَنا في الأمور كلها، وأجِرنا من خِزي الدنيا وعذاب الآخرة.

اللهم أصلِح لنا دينَنا الذي هو عصمةُ أمرنا، وأصلِح لنا دنيانا التي فيها معاشُنا، وأصلِح لنا آخرتَنا التي إليها معادُنا، واجعل الحياةَ زيادةً لنا في كل خير، والموتَ راحةً لنا من كل شر.

اللهم اشفِ مرضانا، وارحم موتانا، وبلِّغنا فيما يُرضيكَ آمالَنا.

﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

اللهم إنا نعوذ بك من زوال نعمتك، وتحوُّل عافيتك، وفُجاءة نقمتك، وجميعِ سخطك.

﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

وصلَّى الله وسلَّم على عبده ورسوله نبيِّنا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.